حلف الفضول

حلف الفضول

عن عبد الرحمن بن عوف –رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"لقد شهدتُ غلاماً مع عمومتى حلف المطيّبين ، حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم وأنى أنكثه ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت"
(حديث صحيح: أخرجه أحمد و البخارى و آخرون).

....

يتضمن هذا الحديث الشريف قصة قصيرة جداً ، ذات مغزى بعيد جداً ، لأنها تكشف عن معنى من معانى التضامن الإجتماعى لإقامة العدل ، والمحافظة على كرامة الناس ووحدة المجتمع ، والوفاء بالعهد وحفظ المواثيق حتى لو تم ذلك فى الجاهلية أى قبل الإسلام .

والرسول – صلى الله عليه وسلم – يتحدث عن "حلف الفضول" الذى تنادى إليه زعماء قريش فى دار عبد الله بن جدعان ، وكانت له منزلة كبيرة فى قومه بحكم شرفه وسنّه ، واجتمع الحلف من بنى هاشم ، وبنى المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتميم بن مرة ..وقرر المتحالفون وتعاهدوا على ألاّ يجدوا بمكة مظلوما إلاّ قاموا معه ، سواء كان من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس، وأن يكونوا معه على من ظلمه حتى ترتّ عليه مظلمته .

وهذا الحلف الذى تحكى عنه قصة الحديث الشريف يتوافق مع صميم الإسلام فى رفضه للظلم ووقوفه إلى جانب المظلومين .

وهو ما جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعبّر عن حبّه لهذا الحلف ، وأنه لا يتخلى عنه ولا ينقضه حتى لو كان المقابل حمر النعم ، وهى الإبل الحمراء التى يعدها العرب من أكرم أنواع الإبل و أعزها ..كما يرى الرسول-صلى الله عليه وسلم- أنه لو دعى إلى هذا الحلف مرة أخرى لأجاب وشارك فيه و أقره و باركه ، لأنه يمنع الظلم وينصر المظلوم ..أليست غاية الإسلام هى العدل ؟

ولا ريب أن مضمون الحلف ومغزاه يصّب فى سياق التضامن الإجتماعى ووحدة المجتمع ، وهو ما يقره الإسلام ويدعو إليه على أساس الإيمان والتقوى ؛ قال تعالى :-

" وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"(سورة آل عمران الآية١٠٣)

وإذا كان الجاهلون من قريش قد عقدوا فيما بينهم بتوجيه الفطرة والمصلحة "حلفا" يقيم العدل فيما بينهم لصالح الضعفاء والمظلومين ، حتى لو كانوا من خارج مكة ؛ فإن الإسلام يلزم المسلمين جميعاً بإقامة العدل ، ونصرة المظلوم ، ومساعدة الضعيف والشدّ على يد الظالم والمنحرف ، فالله سبحانه وتعالى يضع الظالمين فى صورة كريهة غير مقبولة ، وينفر منها أصحاب الضمائر الحية ؛ فهم يوم القيامة يبعثون فرادى منعزلين بلا أنصار ولا أصدقاء ولا أقارب ولا أعوان ولا شفعاء . يقول الحق تبارك وتعالى :-

".....وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ" (سورة الحج من الآية ٧١)

ويقول سبحانه :

"..... مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ" (سورة غافر من الآية ١٨)

وعن جابر – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : "اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم" (رواه مسلم).

وحديث جابر يكشف عن عاقبة الظلم ، واقترانه بالشحّ أى البخل ، والبخل باب واسع للكزازة والأنانية والحرص الزائد وحب النفس حبّاً ينسى صاحبها كل

شىء ، وكل هذا يؤدى إلى سفك الدماء واستحلال المحارم ، وهو ما ينهى عنه الحديث الشريف ؛ وينهض حلف الفضول فى الجاهلية لمقاومته والوقوف فى طريقه حتى يستقيم المجتمع على جادة العدل .

وفى حديث آخر رواه مسلم أيضا ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرنـــاء" والشاة الجلحاء هى التى لا قرن لها ، والقرناء التى لها قرنان . والحديث الشريف يشير إلى أن الظلم محُرم بين الإنسان والإنسان، والحيوان والحيوان ، مما يعنى أن البعث سيكون للإنسان والحيوان معا، وسيكون هناك حساب وقصاص ، حتى لو نطحت شاة قرناء شاة جلحاء .

إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين يذكّرنا بحلف الفضول ، فإنه يوّجهنا إلى قيم الإسلام الخالدة وفى مقدمتها التآلف والتواد والترُحم ، والتعاون على ما يحمى المجتمع الإسلامى من آفة الظلم ، ويعين الضعفاء للحصول على حقوقهم بوصف ذلك واجباً إسلامياً يفيد المجتمع كله . والعقد أو العهد أو الحلف ، معناه وعد يجب الوفاء به ، وعدم الغدر بالمعاهد ، حتى لو كان الأمر مع المعاهدين الأعداء ، فلا يجوز نقض العهد معهم دون إخبارهم بعد ظهور سبب مقنع للمنقض .

"إِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ"

(سورة الأنفال : ٥٨)

حلف الفضول أول مؤسسّة تعنى بالأمن والعدل ، وكان يمكن للأمم المتحدة أن تكون نسخة جيدة منها ، لو أنصفت الدول الكبرى التى تلتهم الصغرى ، وتظلمها وتبغى عليها !!

بناء الكعبة

بناء الكعبة

عن السائب بن عبد اللّه – رضى اللّه عنه – قال : كنت فيمن بنى الكعبة فى الجاهلية ، فأخذت حجراً فسوّيته فوضعته إلى جنب البيت . قال : فكنت أعبده من دون اللّه تبارك وتعالى ، فإن كان ليكون فى البيت الشىء أبعث به إليه ، حتى إذا كان يوماً لبن طيب ، الذى أنفسه على نفسى ، فأصبه عليه ، فيجىء الكلب فيلحسه ثم يشغر فيبول .

فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ، وإن قريشاً اختلفوا فى الحجر حين أرادوا أن يضعوه ، فقال بطن من قريش : نحن نضعه ، وقال آخرون : نحن نضعه ، حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف ، فقالوا : اجعلوا بينكم حكماً .

قالوا : اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب ، فدخل رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم –

فقـــالوا : هذا الأمين ، أتاكم الأمين ، وكانوا يسمّونه فى الجاهلية الأمين ، فقالوا: يا محمد ، قد رضينا بك .

فدعا بثوبٍ فبسطه ، ووضع الحجر فيه ، ثم قال لهذا البطن ، ولهذا البطن " ليأخذ كل بطن منكم بناحية من الثوب " .

وفى رواية أخرى : " لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ". ففعلوا و أخذه رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – فوضعه بيده .

(حديث صحيح ، أخرجه أحمد و الحاكم).

....

يتناول هذا الحديث الشريف قصة بناء الكعبة فى الجاهلية قبيل بعثة الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – فيكشف طرفاً من حياة الناس وهم يعبدون الأصنام ، ومن ناحية أخرى يكشف جانبا من سيرة الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – فى قومه ، ونظرتهم إليه .

و الحديث الشريف يقدم القصة الخاصة بإعادة بناء الكعبة من خلال أحداث متسلسلة يقدمها راوٍ شارك فى هذا البناء، وكان يعبد الأوثان على طريقته، وإن كان مثل بقية العرب يعظم الكعبة الزهراء.

الراوى، وهو السائب بن عبد الله، رضى الله عنه، هو الشخصية القصصية الأساسية فى هذه القصة، بالإضافة إلى شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم.

وشخصية السائب، صورة للمجتمع الجاهلى، حيث كان يعبد الأوثان من دون الله، ويخبرنا أنه أخذ حجراً وسواه، وجعله صنماً يعبده، ووضعه إلى جنب البيت ثم يقدم لنا المفارقة الطريفة التى تكشف عن قصور واضح لدى الوثنيّين، فهو يقدم لهذا الحجر الذى سواه إلهاً يعبده ما تشتهيه نفسه، مثل اللبن الذى يصبه عليه، فيأتى أحد الكلاب، فيلحس هذا اللبن ويستمتع به، فى الوقت الذى حرم منه السائب بن عبد الله، وتكتمل المفارقة بأن الكلب يشغر، أى يرفع إحدى رجليه بجوار التمثال الذى يعبده السائب، ثم يبول عليه ويمضى إلى حال سبيله. لقد صار السائب فيما بعد صحابيا جليلاً، وهو حين يروى هذه المفارقة فى قصته يبين إلى أى مدى انحط الإدراك العقلى فى العصر الجاهلى تجاه الإله المعبود، فبدلاً من البحث عن الإله الذى يملك كل شىء وينفع ويضر، إذا بهم يصنعون آلهتهم من الحجر التى يبول عليها، بعد أن يقدموا لها من القرابين ما تشتهيه أنفسهم، ويحّرمونه عليها.

وتبدو هذه القصة التى تكشف عن ضلال عبادة الأوثان وانحطاطها، تمهيداً لبيان جانب آخر من جوانب الحياة الجاهلية، يتمثل فى ذلك التعصّب الذى يسيطر على قريش أو أهل مكة، ويكاد يؤدى بهم إلى الاحتكام إلى السيف دون مراعاة لقرابة أو آصرة أخوة أو رابطة نسب، لولا أن بعض العقلاء يتدخل فى أمر وضع الأسود ليقول: اجعلوا حكما بينكم.

لقد طالب فريق أو بطن من قريش فى وضع الحجر فى مكان ما ، وطالب فريق آخر بوضعه فى مكان غيره ، واختلفا ، وكادا يقتتلان ، ولكن موقف العقلاء باتخاذ حكمٍ بينهم هدأ الموقف وطيّب النفوس ، وخاصة أن الاحتكام كان لأول داخل من الباب ، وازداد الموقف هدوءاً والنفوس قبولاً ، دخول محمد – صلى الله عليه وسلم – عليهم ، الذى تنبىء شخصيته عن دلالالة مهّمة وذات مغزى ، وهى اتصافه بالأمانة ، وتسميته بالأمين "**هـذا الأمـين، أتـاكم الأمـين، وكـانوا فى الجاهلية يسمّونه الأمين** " ومعنى ذلك أن نزول الوحى عليه كان حقا و صدقا ، وأن اتصافه بالأمانة كان تمهيداً لنزول الوحى وحمل الرسالة وتبليغ الأمانة . لذا فإن القوم ما كادوا يرونه حتى اطمأنت نفوسهم، وهدأت خواطرهم ، وارتضوا حكمه بأن يأخذ كل فريق بطرف من الثوب ، ويضع هو الحجر فيه ، ثم يرفعونه جميعاً و تنتهى بذلك مشكلة خطيرة ، كان يمكن أن تكون لها مضاعفات خطيرة لولا تدخله – صلى الله عليه وسلم .

لا ريـب أن قصـة بناء الكعبة فى الجاهلية تدّلل على مكانتها فى نفوس العرب وقلوبهم ، لقد حاول أبرهة أن يهدمها، ولكنه ما استطاع، فقد ردّ الله جيشه، وأرسل عليه الطير الأبابيل التى ألقت عليه حجارة من سجيل ، وجعلته مع جيشه كعصفٍ مأكول .. وهذه الكعبة هي التي كان يتعبد حولها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد نزول الوحي ،وهي التى طهرّها من الأصنام و الأوثان بعد الفتح الأعظم ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، وهى التى وضع محمد حجرها الأسود فى مكانة على النحو الذى بينته قصة الحديث الشريف الذى بين أيدينا.فصلاة وسلاماً على محرّرها ومطهّرها، وعلى آله و أصحابه وسلم .

الانتحار

الانتحار

عن جندب البجلى –رضى الله عنه– قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"إن رجلاً ممن كان قبلكم خرجت به قرحة، فلما آذنه انتزع سهما من كنانته، فنكأها فلم يرقأ الدَّمُ حتى مات .

فقال الله: عبدى بادرنى بنفسه، حرّمتُ عليه الجنة" . (أخرجه مسلم)

فى إيجاز شديد تتحدث القصة النبوية الشريفة عن نمط من الناس يستعجل نهايته بنفسه دون أن يضع فى حسبانه أيّاً من تعاليم الإسلام التى تحضّ على الرضا بقضاء الله وقدره ، والصبر على البلاء ، واحتساب ما يصاب الإنسان عند الله سبحانه ..

فهذا الرجل الذى ينتمى إلى قوم سبقوا عصر البعثة المحمدية، **أي** من الأقوام السابقين على الإسلام . وعبرت عنه القصة بقوله "**رجلاً ممن كان قبلكم**" تصيبه قرحة مؤلمة و**القرحة :** مفرد قروح ، وهى الدمّل أو الخراج ، من الحبات التى تصيب الجلد وتمتلىء بالصديد والقيح .

لم يحتمل الرجل الصبر على آلامها وعذابها ، **وبلغة الحديث الشريف آذته : أي** آلمته وأتعبته .

فيهرع إلى كنانة سهامه ، **والكنانة:** هى الحافظة التى توضع فيها السهام، **فنتزع:** أي يُخرج منه سهما ويـ**نكأها:** أى يلمسها ويضغط عليها ليفتحها ، ويخرج ما بداخلها من صديد وقيح ويفتح القرحة فتنزف صديداً ودماً ، **وهو معنى قوله :لم يرقأ الدم أي** لم ينقطع ولم يتوقف النزيف ، وتكون النتيجة الطبيعية هى الموت .

الله سبحانه يرفض هذا السلوك الذى يقود صاحبه إلى الهلاك ، وتكون عاقبته هى تحريم الجنة عليه .

والانتحار خلّة مذمومة و مستهجنة ، يحرّمها الخالق ، فهو أعلم بمصلحة عباده وهو الذى جعل حياة الإنسان غالية و ثمينة ، هو الذى أنشأها ، وهو الذى يسترّدها ولا يجوز لأحد سواه أن يتدخل فى أمر الحياة أو الموت . والحياة نعمة من نعم الله الكبرى لا يصّح أن يبددّها الإنسان تحت أى ظرف من الظروف ، بل ينبغى أن يحرص عليها ويتمسك بها .ولهذا نجد الحق سبحانه ينهى عن خلة الانتحار الذميمة التي يعبر عنها بقوله "**عبدى بادرنى بنفسه، حرّمتُ عليه الجنة**" ، و**بادرنى** : أى أسرع إلى الموت بنفسه .

هناك نفوس بشرية ضعيفة ، ليست لديها القدرة على مواجهة الحياة وتحمل تبعاتها و صعابها ، لذا يسقطون فى عار التخلص من الحياة بأيديهم ، بعد الهروب من المسئولية والواجبات ، مما يدل على ضعف الوازع و العقيدة .

والمسلم الحقيقى قوّى الإيمان ، لا يستسلم للضعف أو المتاعب ، إنه يواجهها بروح المؤمن القوّى الذى يصبر على المحنة ، ويتقبل الاختبار بصدر رحب ، ويؤمن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن الإيمان بالقضاء و القدر أساس راسخ من أسس الإيمان و العقيدة السليمة .

قال تعالى : -

" وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ " (سورة البقرة الآية ١٥٥)

وقال تعالى :-

" .....إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ " (سورة الزمر الآية ١٠)

وقال تعالى :-

" وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ " (سورة الشورى الآية ٤٣)

وقال تعالى :-

"..... ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ" (سورة البقرة من الآية ١٥٣)

هذه الآيات الكريمة تؤكد على قيمة الصبر و أهميته فى مواجهة المتاعب و المصاعب وتحملها فى رضاً و يقين بعون الله ، فهو سبحانه مع الصابرين فى كل المجالات يقوّيهم و يساندهم ، يمنحهم الصحة فى المرض و الرزق بعد الفقر ، و النصر فى المعركة ، شريطة أن يكون " صبراً جميلاً " كما ورد فى الآية الكريمة .

" فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا " (سورة المعارج الآيات٥٧)

و الصبر الجميل هو بذل كل ما فى طاقة المسلم لمواجهة الخطر أو البلاء من علاج ودواء، وأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد الكامل على الله و التوكل عليه ، و بعدئذ يأتى المدد منه سبحانه ، وتتحول المحنة إلى منحة .

يقول الرسول – صلى الله عليه وسلم : عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلاّ للمؤمن ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له " رواه مسلم " .

إن ظاهرة الانتحار أو التخلص من الحياة بيد صاحبها تنتج عن ضعف الإيمان وفراغ القلب من اليقين ، لذا نجد الأمم التى تخلّت عن الدين و اعتمدت القوة المادية ونسيت الارتباط بالله ، تتزايد فيها هذه الظاهرة و تشيع ، فقد فقد أهلها الهدف و الغاية فى الحياة ، وتجاهلوا مهمة الإنسان فى أرض الله ، فأقدم أفراد كثر منهم على التخلص من الحياة بأيديهم ...وهى جريمة منكرة بكل المقاييس الإلهية و البشرية .

لقد رأينا فى الحديث الشريف سرداً مركزاً و خاطفاً يكشف عن طبيعة العجلة لدى بعض الناس و اضطرابهم ، وقلقهم ، وعدم تحملهم للمصاعب ، فيقدمون على المبادرة بإنهاء حياتهم ضعفا و استسلاماً وهو ما تكون نتيجته الحرمان من الجنة !

نسأل الله أن يقوى إيمان المسلمين ليصبروا على البلاء و يتجاوزوا محنته إلى آفاق المنحة والخير العميم . بالله التوفيق .

لا يشقى بهم جليسهم

لا يشقى بهم جليسهم

عن أبى هريرة – رضى اللّه عنهم – قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

" إن للّه ملائكة سيّاحين فى الأرض فضلاً عن كتاب الناس ، يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون اللّه تنادوا ، هلموا إلى حاجاتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم ، وهو أعلم منهم : ما يقول عبادى؟

فيقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك، و يمجدونك .

فيقول : هل رأونى ؟

فيقولون : لا واللّه ما رأوك .

فيقول : كيف لو رأونى ؟

فيقولون:لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة،وأشدّ لك تمجيداً،وأكثر لك تسبيحاً.

فيقول : فما يسألونى ؟

فيقولون : الجنة .

فيقول : وهل رأوها ؟

فيقولون : لا واللّه يا رب ما رأوها .

فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟

فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً ، وأشدّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة .

قال : فمم يتعوّذون ؟

فيقولون : من النار.

فيقول اللّه : هل رأوها ؟

فيقولون :لا واللّه ، يا رب ، ما رأوها .

فيقول : فكيف لو رأوها ؟

فيقولون : لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً ، وأشدّ لها مخافة .

فيقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم.

فيقول مَلَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ؟

فيقول : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم "

(أخرجه البخارى و آخرون).

....

تمثل هذه القصة النبوية الشريفة نمطاً فريداً بديعاً من القصص النبوى الشريف ، حيث تعتمد على الحوار البسيط الواضح الدقيق بين الحق سبحانه وتعالى وملائكته فى شئون العباد و مصائرهم ومن خلال هذا الحوار نتعرف على موقف الخلق من الخالق و نتيجة هذا الموقف فى الحياة الآخرة ، كما نتعرف على أهمية الذكر و فضل الذاكرين ، وقيمتهم عند ربهم وعند الملائكة .

تبدأ القصة بسرد مركّز يخبرنا عن الملائكة السيّاحين الذين يسوحون فى أرجاء الأرض ، **وملائكة سياحون** : أي طوافون فى الأماكن و الجهات . وهم **يلتمسون أهل الذكر** : أي يبحثون عن أهل الذكر من المصلين والمسبحّين و قارئى القرآن وطالبى العلم ومن يرفعون أيديهم و أصواتهم بالدعاء والمناجاة للخالق الأعظم . والملائكة الذين يكتبون أعمال الناس ويسجلّونها ، وهؤلاء و أولئك يبحثون عن عباد الله من البشر الذين يذكرونه بصور الذكر المختلفة ، وهى صور تربطهم به سبحانه وتجعلهم مشدودين إليه فى أعمالهم و يقظتهم ونومهم ، يذكرونه بالدعاء و قراءة القرآن الكريم وطلب العلم ، وتسبيحه و مراقبته فى كل صغيرة و كبيرة . إن الذكر هو صناعة الضمير الإنسانى فى أرقى صورة و أفضلها لأنه يحول بين الإنسان و مقارنة الشرّ والعدوان والتقاعس عن الأعمال الخيرة. إنه يدفعه دفعاً لمرضاة الله سبحانه والتقرب إليه بعمل الصالحات والدفاع عن القيم النبيلة وردّ الشرّ والعدوان ، والعمل الدائم والدائب لخير الإنسانية كلها ، وليس لخير نفسه فحسب .

الملائكة السياحّون يسعدون حين يجدون قوماً من المسلمين يجتمعون على ذكر سبحانه ، ويفرحون بهم ، ويتنادون أي ينادى بعضهم بعضاً ، هلموا إلى حاجاتكم . فيحيطونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، ويجرى بينهم وبين الحق سبحانه الحوار الكاشف عن قيمة أهل الذكر وفضل الذاكرين .

لقد أشار القرآن الكريم فى العديد من المواضع إلى أهمية ذكر الله والترغيب فيه، وعدم الغفلة عن ذكره سبحانه، وبيّن أن ذكر الله سبب الخير والفلاح والنجاح، وهو الطريق إلى الغفران والجنة.

قال تعالى :-

" .....وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ....." (سورة العنكبوت من الآية ٤٥)

وتأمل الخبر الذى جاء على صيغة أفعل التفضيل (أكبر) مما يعنى أن المسألة ليست هينة وليست بسيطة، لأنها منوطة بخالق الخلق ومنشئهم وحميتهم.

وقال تعالى : -

" فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ....." (سورة البقرة من الآية ١٥٢)

وياله من شرط وجواب شرط يبينان قيمة الذكر والذاكر فى آن واحد. اذكرونى يا عبادى فأكافئكم أيضاً. إنه شرف عظيم أن يرقى العبد ليكون شيئاً مذكوراً فى حضرة الخالق سبحانه وتعالى.

وقال تعالى :-

" وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ" (سورة الأعراف ٢٠٥)

والآية الكريمة تشير إلى طبيعة الذكر الذى يكشف مستوى الخالق بالنسبة إلى المخلوق، فالذكر هنا تضرع وتذلل واعتراف بضعف الإنسان المخلوق إزاء الخالق سبحانه والذكر يأتى فى سياق السرّية والمخافتة، دون الجهرية والعلنية التى قد تلتبس بالرياء والمظهرية.. والذكر الحقيقى موصول دائماً فى كل الأوقات، الغدوّ والأصال الصباح والمساء، النهار والليل، وهو ما يؤسس للنهى عن الغفلة وعدم الذكر "ولا تكن من الغافلين". فالغفلة عن الذكر تقود إلى أشياء خطيرة، أبرزها موت الضمير، ونسيان الآخرة، وسيادة الظلم والطغيان..

ثم إن القرآن الكريم يدعو إلى الذكر من أجل الفلاح والمغفرة والأجر العظيم فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى :-

"..... وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة الجمعة من الآية ١٠)

وقال تعالى : -

" إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (سورة الأحزاب الآية ٣٥)

قال تعالى :-

" يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا"

(سورة الأحزاب الآيات ٤١-٤٢)

وقد ورد فى الحديث الشريف تفاصيل كثيرة عن الذكر و طبيعته و فضله ومردوده على الذاكرين : فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله و بحمده ، سبحان الله العظيم " متفق عليه .

وعنه – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" **لأن أقول** : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس " رواه مسلم . وطلعت عليه الشمس كناية عن الدنيا وما فيها .

وعن أبي أيّوب الأنصاريّ –رضى الله عنه– عن النبى –صلى الله عليه وسلم– قال:

من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل " متفق عليه .

وعن أبى ذرّ – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده " رواه مسلم .

إن الذكر لا يكون مجرد صوت أو لفظ يخرج من اللسّان أو الفم ، ولكنه وعى موصول بالقلب بحقيقة العظمة الإلّهية و قدرتها على تسيير الكون و نشأة الخلق وتقدير الأقدار، حينئذ يكون "الـذكر" عبادة خالصة لله يستحق صاحبها المكافأة الربانية بدخول الجنة والبعد عن الحوار.

إن الحوار القصصى الحىّ يكشف عن حقيقة الذاكرين وطبيعة تصوّراتهم عن الخالق سبحانه وعن الجنة و النار، كما يكشف عن طبيعة الجائزة التى ينالونها بسبب الذكر، ومنها أن من يحضر مجلسهم ينال جائزتهم نفسها تكريما لهم و تقديراً يعتمد الحوار على السؤّل و الجواب ، وهو سؤّل يعلم سائله – الحق سبحانه – طبيعة الجواب ، وذلك للإشادة بقيمة المسئول عنه وبيان علو منزلته وشرف مكانته ..

فالله سبحانه يعلم ما يقول عباده ويفعلونه، ولكنه يسأل الملائكة: ما يقول عبادى؟

فتكون الإجابة : يسبحونك ، ويكبرونك و يحمدونك ، ويمجدونك . وهى أقوال وأفعال تشمل معنى الذكر ووجوهه المتعددة ومنها: التسبيح والتكبير والحمد والتمجيد .

ويأتى سؤال آخر يكشف عمق الإيمان و طبيعته فى نفوس الذاكرين :

"هل رأونى؟".

الرؤية و عدمها مناط الإيمان و غايته و فلسفته ، إذ إن المشركين و الكافرين يعلقون كفرهم و شركهم على الرؤية ، أو على ما يحسّونه و يلمسونه مادّياً ، ولكن المؤمنين الحقيقيين يستخدمون عقولهم فى التفكير و التدبر و التأمل ، فيهتدون إلى الإيمان من خلال الحقائق الكونية المحيطة بهم ، ويؤمنون بربهم دون أن يروه أو يشاهدوه. وهنا يكون السؤّل: فكيف لو رأونى؟ وتكون إجابة الملائكة السياحيين: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة ، وأشدّ لك تمجيداً ، وأشدّ لك تسبيحاً ..

إنه منطق الإيمان و اليقين الذى يختلف عن منطق الجحود والنكران والمكابرة والعتوّ..

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرؤية الله ، فهو لا يختلف بالنسبة للجنة التى يسألون عنها، ولم يروها، ولو رأوها، فسيكونون أشد حرصاً عليها ، وأشدّ لها مخافة ..

وتكون نتيجة الحوار القائم على التدرج فى بيان المواقف و طبيعة المؤمنين ، والتشويق الذى يتصاعد عبر الحوار هى إشهاد الملائكة على غفران الذنوب لهؤلاء الذاكرين الذى ترتبط قلوبهم بمحبة الله ذكراً و تسبيحا و تحميداً وتمجيداً .

ثم يكون المغزى النهائى للقصة النبوية الشريفة، هو الغفران لمن يحضر مجالس الذاكرين ، حتى لو لم يكن ذاكراً ؛ أو جاء لحاجة يبحث عنها أو منفعة يريدها . إن الله يغفر له أيضا ، وحين يتساءل الملائكة السياحون بلهجة من يستكثر عليهم التساوى بالذاكرين ، فإن الله الذى وسعت رحمته كل شىء يجيبهم : "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم" **ولا يشقى بهم :** أي لا يصير شقياً أو لا يصير من أهل الشقاء و المتاعب .

وكأنه يكافىء الذاكرين مكافأة إضافية من خلال مكافأة جلسائهم الذين يقصدونهم لحاجاتهم أو قضاء مصالحهم .

إن الذكر كما سبق القول ليس مجرد تمتمة جوفاء باللسان ، ولكنه وعى بالقلب بحقيقة الإيمان فى القول و العلم و السلوك ، يجعل المسلم مربوطا بخالقه فى كل الأحوال ، مرتقياً إلى مرتبة الإحسان التى أشار إليها حديث شريف فحواه أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . اللهم اجعلنا من الذاكرين الشاكرين المسبحين الحامدين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تعجبه نفسه !

تعجبه نفسه !

عن أبى هريرة –رضى الله عنه– قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :
" **بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه ، مرجل جُمته ، إذ خسف اللّه به الأرض ، فهو يتجلّل فيها إلى يوم القيامة** "
(أخرجه البخارى و مسلم و أحمد).

....

هذه القصة النبوية الشريفة تعتمد أسلوب السرد المباشر عن طريق ضمير الغائب ، وتخبرنا بمغزاها عن طريق المضارع ، بوصف هذا المغزى قائماً فى كل زمان ومكان حتى يوم القيامة .

نحن أمام رجل معجب بنفسه ، مغترٌّ بها ، يختال أمام الناس ، ويرى نفسه أفضل منهم و أجمل و يبدو اهتمامه بشعره تمشيطا وترجيلاً دليلاً على هذا الاختيال و ذلك الاغترار و العجب و الكبر ، إننا بإزاء ظاهرة اجتماعية تكشف عن سطحية فى الفكر وتفاهة فى السلوك حيث يلجأ بعض الناس إلى الشكل والمظهرية ، ويعتقد أن الصورة الخارجية للإنسان تؤهله كى يكون أفضل من الآخرين و أحسن منهم، بينما هذه الصورة الخارجية لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تعطي للإنسان قدراً أو فضلاً يميّزه عن غيره.بل إن هذه الصورة الخارجية إذا انفصلت عن السلوك المحمود والفكر العميق تتحول إلى صفة مذمومة وخاصة إذا خالطها الكبر و الرياء والخيلاء والعجب ، وهى معالم أبعد ماتكون عن ملامح المؤمن الحقيقى الذى ينبغى أن يتحلى بالتواضع و الإخلاص والدقة و الإتقان ابتغاء وجه اللّه وطاعة له و انقياداً .

وقد حذر القرآن الكريم فى أكثر من موضع من الكبر والعلو والاختيال وتصعير الخد ، وضرب أمثلة على هؤلاء الذين تكبّروا و تعالوا على الناس ، وكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب .

قال تعالى :-

" تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" (سورة القصص الآية ٨٣)

وقال تعالى :-

" وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ ....." (سورة الإسراء الآية ٣٧)

وقال تعالى :-

" وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" (سورة لقمان الآية ١٨)

وقال تعالى :-

" إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ"

(سورة القصص الآيات من ٧٦-٨١)

فى الآيات بيان لطبيعة الكبر، واحتقار المتكبر لغيره من الناس، وازدرائه لهم، وإعجابه بنفسه حيث لا يرى فيها إلا الكمال والعلم والصلاح، وهى رؤية مزيفة غير حقيقية، تدفعه إلى الإعراض عن الناس والتكبّر عليهم والتبختر فى المشى والسلوك، وهذه كلها صفات لا يقرّها الإسلام ولا تتقبلها الفطرة السليمة النقية.

**** *** ***

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حذر من الكبر، ونهى عنه وقال فى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

" لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنا و نعله حسنة؟ قال : " إن الله جميل يحب الجمال " .

الكبر بطر الحق و غمط الناس "رواه مسلم. وبطر الحق دفعه وردّه على قائله، وغمط الناس : أى احتقارهم وازدراؤهم.

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

" ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذّاب ، وعائل مستكبر " (والحديث رواه مسلم).

ومعنى العائل : الفقير.

وكما نرى فإن الكبر والخيلاء والعجب بالنفس صفات لا ترفع صاحبها بل تحط من قدره عند الله وعند الناس جميعاً، وهى تتنافى مع فضيلة التواضع التى ينبغى أن يتحلّى بها المسلم الحقيقى.

إن الكبر والخيلاء والعجب تقود صاحبها إلى الهلاك، وقد رأينا فى القصة النبوية أن شخصية المتكبر المختال المفاخر المعجب بنفسه وحلته أي الرداء أو الإزار الذي يتكون من جزئين أو ثوبين مثل البدلة التي يرتديها الناس على أيامنا، و شعره المرجل ؛ أي الممشط، يخسف الله به الأرض، ويجعله يغوص فى أعماقها ليذهب أثره، أو كما ورد في الحديث الشريف يتجلل فيها ، كما جرى لقارون الذى بلغ به

الغرور والكبر أن نسب الغنى إلى نفسه " قال إنما أوتيته على علم عنـــدى ...."وكان جزاؤه أن خسف الله به الأرض ، فلم يبق هو ولا ماله .

ولعل ما يفّسر إخفاق كثير من الأعمال والمشروعات على المستوى الفردى والجمعى هو المظهرية والصورية التى تتلبس بعض الناس من القائمين بها ..

نسأل الله أن يقينا شرّ الكبر والخيلاء وأن يجعلنا من المتواضعين الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين .

خشيتك يا رب !

خشيتك يا رب!

عن أبى هريرة – رضى اللّه عنه – أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم – قال :

" قال رجل – لم يعمل حسنة قط – لأهله : إذا مات فاحرقوه ، ثم اذروا نصفه فى البّر ونصفه فى البحر ، فواللّه لئن قدر اللّه عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحداً من العالمين .

فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البرّ فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال :

لم فعلتَ هذا ؟

قال: من خشيتك يا رب. وأنت أعلم فغفر اللّه له .

(أخرجه البخارى ومسلم ومالك والبغوى).

وفى رواية أخرى :

"أسرف رجل على نفسه ، فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال : إذا أنا مت فأحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم اذرونى فى الريح وفى البحر. فواللّه لئن قدر علىّ ربىّ ليعذبّنى عذاباً ما عذبّه أحد .

قال : ففعلوا ذلك به .

فقال للأرض : أدى ما أخذت ، فإذا هو قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟

فقال: خشيتك يا رب . فغفر له بذلك. (أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجة وغيرهم).

....

تعتمد هذه القصة فى روايتيها على السرد والحوار طريقاً إلى كشف ملامح شخصية أضلّها الجهل والغفلة ، فعميت عن الصواب ، وتصورت بسذاجتها وخيالها القاصر أنها يمكن أن تهرب من اللّه ، ومن الوقوع تحت عذابه بسبب تقصيرها وإسرافها على نفسها ، ولكن أنى لها ذلك ، والسموات والأرض فى قبضة خالقهما لا يحدث فيهما شىء بغير علمه أو تدبيره ؟ إن هذا الرجل الذى لم يعمل حسنة قط طوال حياته أسرف على نفسه أي بالغ في مقارفة المعاصي والذنوب والخطايا وعدم بذل الخير والمعروف ومقارفة الذنوب ، وأسرف على نفسه حين ظن أنه يمكنه أن يهرب من قبضة اللّه ، حين يحرق أهلُه جسدَه بعد الموت ويذرونه في جميع الجهات حتى لا يبقى منه شيء،

أوينثرين نصفه فى البّر ونصفه الآخر فى البحر كما جاء في الحديث الشريف ..كأنّ جسده الذى تحوّل إلى هباء منثور يمكن أن يتلاشى ولا يعود إلى الحياة مرّة أخرى ، ونسى أن من خلقه أول مرة قادر على أن يعيد إنشاءه مرة أخرى بطريقة أسهل من ذى قبل ، ويبدو أن هذا الرجل الغافل الساذج نسى أن يقرأ قوله تعالى ؛ ردّاً على أولئك المكذبين بالبعث وإمكانيته .

" لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ " (سورة القيامة الآيات من ١-٤)

إن جمع العظام و تسوية البنان – أى أطراف الأصابع – مسألة بسيطة للغاية ومثلها جمع ذرات الجسد التى نثرت فى البر و البحر ، لأن البر و البحر ملك لصاحب الكون؛ يأمرهما أن يجمعا ما فيهما ، فيعود الجسد كياناً إنسانيا مكتملاً كما كان ، أو يأمر الأرض – كما فى الرواية الثانية – بأن تعيد ما أخذت و استقر فى جوفها من ذرّات هذا الجسد فيستوى قائماً مرة أخرى ، يجيب على الأسئلة ويخضع للحساب .

إن الرجل يُسأل عما دفعه إلى فعل مافعل ، أو ما حمله على ذلك ، فيعلّل وصيته القاضية بنثر جسده بعد إحراقه ، عقب موته ، بأن اللّه سبحانه لو قدر عليه، فإنه سيعذبّه عذاباً شديداً أو سيعذبه عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين ، وذلك بسبب ذنوبه و إسرافه على نفسه ومبالغته فى المعاصى ..

ولكن القصة تتدّرج بأحداثها ، ويخيب ظن الرجل ، ويجمع البر و البحر ما فيهما من ذراته أو تخرج الأرض ما فى باطنها من ذرّاته ، لتتحّول بقدرة اللّه إلى كيان قائم هو كيان هذا الرجل بعينه ؛ و يجد نفسه مقدوراً عليه بقبضة اللّه ، ويُسأل عن فعله هذا أو سلوكه هذا والدافع إليه لم فعلت هذا؟ ما حملك على ما صنعت؟ فيجيب إجابة تلقائية : خشيتك يا رب ، خفت من عذابك يا رب ..وهنا تكون المفاجأة التى تمثل ذروة الأحداث ، وهى أن اللّه يغفر له ذنوبه و ينقذه من العذاب الذى كان متوقعاً .

بالطبع، فإن الرجل الذى أسرف على نفسه لم يعلم أن رحمة اللّه لا حدود لها، وأنها تشمل العالم كله ، الإنس و الجن ، الطائعين و العصاة ، أليس هو القائل :-

"....وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .... " (سورة الاعراف من الآية ١٥٦)

وهو القائل جل شأنه :-

" قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ" (سورة الزمر الآية ٥٣)

وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة تتحدث عن رحمة الله بعباده و خلقه جميعاً، منها ما ورد عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه قال ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

" جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة و تسعين و أنزل فى الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه " .

وفى رواية " إن لله تعالى رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن و الإنس والبهائم والهوامّ ، فبها يتعاطفون ، وبها يترحمون ، وبها تعطف الواحدة على ولدها، و أخّر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة " **(متفق عليه).**

وفى رواية مسلم أيضا من رواية سلمان الفارسي رضى الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن لله تعالى مائة رحمة يترحم بها الخلق بينهم ، وتسع و تسعون ليوم القيامة " وفى رواية: إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات و الأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فجعل منها فى الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها و الوحش و الطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة ".

إن الله هو الرحمن الرحيم ، و المسلم يردد هذا التوصيف يوميا فى صلاته ودعائه وعمله و حركته ، لأنه مربوط بمن أعطاه نعمة الحياة ، وأتاح له فرصة الاستمتاع بهذه النعمة . بيد أن بعض الناس ممن أضلّهم الجهل و الغواية ينسون رباطهم بالله، وينساقون إلى إشباع غرائزهم و المغالاة فى الذنوب، ولكثرة مقارفتهم للآثام، فإنهم يشعرون أنهم صاروا يستحقون العقاب الإلهى الذى لامفر منه .

هؤلاء الجهلة معذرون ، لأنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل وسوء فهم ؛ وإن كان فى أعماقهم إحساس بالخوف من الله ومن عذابه لهم على خطاياهم ، وربما كان الجهل دافعاً لهم للاستمرار فى مقارفة المعاصى ؛ وقد يدفعهم ذلك كله إلى الغفلة عن رحمة الله التى وسعت كل شىء ، فيستولى عليهم اليأس والإحباط ، ويعتقدون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، فنرى تصرفاتهم تشبه تصرف الرجل الذى نطالع قصته ، ويتصوّرون أن الهرب ممكن من قبضة الله ، فيلجأون إلى مثل تلك الحيلة التى لجأ إليها الرجل بالتوصية بحرق جثته بعد الموت ، ونثر رمادها فى أرجاء الأرض والبحر ، ولكن هيهات ، فصاحب الكون الذى خلقه وأنشأه قادر على استعادة مخلوقاته بصورة أيسر وأسهل ، لأنه يملك الحياة والموت ، ويملك الفعل والإرادة ، وهو صاحب القدرة المطلقة على فعل ما يشاء سبحانه وتعالى .

وإذا كانت رحمة الله واسعة ، فإن ذلك لا يعنى أن يفعل العباد ما يشاءون اعتماداً على سعة الرحمة ، وانطلاقاً من ثقتهم المطلقة فى النجاة . فالله سبحانه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، أى إن الغفران أو الرحمة فيما دون الشرك برضا الله ومشيئته وإرادته ، أما الذين يعتقدون أنهم فى مأمن دائم ويأثقون من معرفة مصيرهم؛ فإن الحق سبحانه يذكرهم بأنه لا يأمن مكر؛ إلا القوم الخاسرين ..

إذاً الواجب على المسلم إذا أخطأ هو التوبة إلى الله بإخلاص ، والإقلاع عن المعاصى وطلب الرحمة من المولى سبحانه ، فهو سبحانه أرحم بعبده من الأم بوليدها .. ولتكن هذه القصة التى بين أيدينا دافعاً إلى الإرتباط بالله والمزيد من هذا الارتباط حتى يشملنا بعطفه ورعايته ورحمته . وهو خير الراحمين .